ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه — كل ما هو مكتوب هنا متخيل . وأنا يوافقنى ويلائم مزاجى أن أجعل الكتابة على لسانى)

— ٣ —

سألنى صاحبى وهو يجلس : « إلى أين إن شاء الله ؟ »

قلت : « يا صاحبى ! العجلة من الشيطان . اجلس أولاً ، وتناول — ثانياً — شيئاً ، ثم سل ما بدالك بعد ذلك . على أنى أستطيع أن أريح فؤادك القلق ، فأقول لك إنا ذاهبون إلى القناطر الخيرية ؛ فهل ارتاح قلبك يامولاى ؟ »

فصاح بى وهو يخرج السيجارة : « القناطر ؟ ... ماذا أخطرها ببالك ؟ ... وماذا تصنع هناك فى هذا الحر ؟ ... شىء غريب ! »

قلت : « يا أخى إنك تفاجأ بالخبر فتستغربه ، أما أنا فقد أطلت التفكير فى الأمر ، وعرضت لى آراء شتى نفيتها واحدا بعد واحد ، حتى استقر رأيى أخيرا على القناطر »

قال : « ولكن الجو حار الآن ... الساعة العاشرة ، وسنشتوى هناك ؛ وأين يمكن أن نجد طعاماً أو شراباً ؟ »

قلت : « لعلك تظن أن القناطر صحراء سينا ... ومع ذلك لا تخف أن تجوع ، فقد أعددت لمدتك كل ما تحتاج اليه من طعام و ... »

قال : « ولكنى رأيت السيارة ونظرت فيها فلم أجد شيئاً ، وأخشى أن تكون — كعادتك — معتمداً على أنها مدينة عظيمة مقصودة من الناس ، ثم نذهب فلا نجد شيئاً »

قلت : « بل ستجد كل شىء . والآن دعنا من حديث المعدة واسمع : إذا رأيت منى ما تنكر ، أعنى ما يخالف المألوف من عاداتى فرجائى اليك أن تذكر قول الشاعر :

إن من ساءه الزمان بشىء لحقيق إذن بأن يتسلى

« فهل أنت لبيب تكفيه الاشارة أم لا بد أن ... ؟ »

وفى هذه اللحظة أقبلت الفتاة — أم ترانى لم أخبر القارئ أن فتاة كانت ستقبل ؟ ؟ على كل حال ... المهم أنه — أعنى القارئ — قد عرف أن فتاة قد أقبلت ، ولا شك أنه استنتج من قولى هذا أنها وسيمة — ولا أبالغ فأقول جميلة — وأن الموعد كان مرتباً من قبل . ونظر صديقى اليها ثم إلىّ وهز رأسه ووقف استعدادا لاستقبالها وتحيتها . وكان وجهه كالطماطم — أعنى أحمر جداً — وليس هذا لونه فى العادة ، وإن كان صحيح الجسم ، معافى البدن ، حسن اللون والشارة ؛ ولكنه شديد الحياء . فقلت للفتاة : « زوزو ... هذا صديقى الذى حدثتك عنه ؛ وفى وسعك أن تعديه صديقاً لك أيضاً .. هل جاءت ليلى ؟ ؟ »

قالت وهى تناوله يدها : « نعم ... وهى تنتظر فى الخارج »

قلت : « ولماذا لم تدخل ؟ .. هل أذهب وأدعوها ؟ »

قالت : « كلا . إن معها الأشياء .... والأفضل أن نذهب الآن »

ومضينا إلى القناطر على مهل ، وكانت السيارة جديدة ، ولا بد أن أقتصد فى السرعة حتى تلين وتكتسب آلاتها المرونة اللازمة وإلا فسدت وخربت بسرعة وقصر عمرها . وكانت زوزو وليلى تنظران إلى السيارات الأخرى التى تخطف إلى جانبنا وتتركنا وراءها فتتحسران . وكانت زوزو لا تفتأ تقول لى : « ألا يمكن أن ندرك هذه السيارة ؟ » وتشير إلى واحدة من السيارات الكثيرة التى كانت تمرق كالسهم ، فأقول : « بالطبع نستطيع ، ولكن الثمن باهظ . ثم إن العجلة من الشيطان ؛ وقد كنت قبل مجيئك ألقى درساً على هذا الصديق فى وجوب التريث وتحاشى العجلة . والظاهر أنك لست خيرا منه ولا أقل حاجة إلى مثل هذه الدروس التى أعطيها للناس مجاناً »

فتصيح بى : « دروس ايه وعجلة ايه ؟ ؟ . كلام فارغ ! ! كيف تترك هذه السيارات تسبقنا ، مع أن سيارتك جديدة وجميلة ؟ »

فأقول : « أشكرك — بالنيابة عن السيارة . ولو كان لها لسان لأسمعتك المطرب المعجب من آيات شكرها وتقديرها لهذا الثناء الجميل ، ولكنها كما تعلمين خرساء بكماء لا تحسن إلا أن تجرى »

فتقاطعنى معترضة : « تجرى ؟ ؟ تقول تجرى ؟ ؟ إنها تزحف ! ! ألا ترى كيف سبقنا كل الناس ؟ .. هل تريد أن نصل إلى القناطر غداً ؟ »

فأتوكل على الله وأجازف بمستقبل السيارة وأعذر فى سرى

الشبان الذين يكونون مع الفتيات فينطلقون كالقنابل فتتحطم سياراتهم ، وقد يلقون هم حتوفهم ؛ فان وجود فتاة مع السائق يغريه باهمال ما يشير به العقل والحكمة . وقد أركبت فتيات كثيرات فلم أر منهن واحدة ترتاح إلى البطء ، وأحسب السبب أن السرعة مظهر من مظاهر القوة وأن السبق غلبة ، والمرأة تعجب بالرجل القوى السباق ، ولا تعجب بالرجل الضعيف الوانى ، وهى لا تدخل فى حسابها أن هذه سيارة وأن المعول عليها لا على الرجل ، وأن الذنب يكون ذنبها إذا قصرت وكانت بطيئة أو ضعيفة . وإنما كل ما تفكر فيه وتعنى به أن معها رجلاً ، وأن رجلها هذا ينبغى أن يكون الأقوى والأبرز والأسرع والأبرع ، إلى آخر ذلك . وهو عندها مسئول عن السيارة التى لم يصنعها . ولعل منطقها أنه اشترى سيارة ، فلماذا لم يشتر سيارة قوية سريعة ؟ ؟ وقد يكون قليل المال ولكن هذا لا ينهض عذرا له ، إذ لماذا يكون قليل المال ؟ ؟ وقد تكون السرعة بغيضة اليه ، ولكن الأمر يرجع إلى تقديرها هى لا إلى تقديره ، ولا إلى ما يؤثر وما يكره . وإذا كان لابد أن يتوخى ما يشير به مزاجه ، فلماذا يستصحب امرأة ؟ ؟

من أجل هذا اضطررت أن أسرع على خلاف ما يقضى به الواجب والحزم وإلا ساء رأى صاحبتى فىّ ، ومن الذى يسره أن يسوء رأى المرأة فيه ؟ ؟ ولاسيما امرأة تكون معه ويكون همه فى هذه اللحظة على الأقل أن يرضيها .. وأدركنا بضع سيارات سبقناها ففرحت وأشرق وجهها وانبسطت أسارير محياها وكثر ضحكها — بل ضحكهما — بعد التقطيب والوجوم والاعتراض ، وصارت كلما مرقنا بجانب سيارة تصفق وتصيح « هيه ! ! » على سبيل الاعجاب بالسيارة التى هى فيها — أى الاعجاب بنفسها ، فان إعجاب المرأة بشىء يكون لها مظهر لاعجابها بنفسها هى — والشماتة بالسبوق والتعيير له والتحدى أيضاً ؛ والمرأة إذا أعجبت برجل جعلت وكدها أن تتحدى الرجال به على صور شتى بعضها أخفى من بعض . وما أكثر ما يكون استمرار إعجابها به رهناً باستمرار فوزه على الأقران وغلبته لهم فيما تورطه فيه

وبلغنا القناطر بعد نصف ساعة ؛ وكانت هذه أول مرة تراها فيها فأقبلت على تسألنى عن كل ما تأخذه العين هناك وجعلت أنا أحيلها على صديق لا تفرغ للسير ومآزقه فى هذا الزحام الشديد حتى صرنا عند أول البساتين ، وكانت الاحالة على صديق تغضبها لتوهمها أن ذلك مبعثه الملل أو الاعراض ، ولا ملل ولا إعراض منى وإنما هى مشاغل الطريق ؛ غير أن المرأة قل أن تقدر ذلك لأن خواطرها كلها دائرة حول نفسها وشخصها ، وهى تفسر كل شىء بأنه صادر عن حب أو كره ، وعن رغبة أو زهد ، وعن إقبال أو انصراف وإعراض ، وعن ارتياح أو ملل وسآمة

وقال لى صاحبى ونحن ندخل البساتين والفتاتان أمامنا : « والآن قل لى ماذا ساءك من زمانك ويوشك أن يخرج بك عن طورك ؟ »

قلت : « يا أخى إنى شاكر لك — وأنت تعلم صدق — هذه العناية بالاطمئنان علىّ ، ولكنى لو أفضيت إليك بهذا السر لما بقيت له لذة تخفف ألمه . انتظر حتى يفتر كل شىء — الألم واللذة جميعاً — فلا يعدو الكلام حينئذ أن يكون حديثاً عن شىء مضى ولا يكاد يعنينى »

فهز رأسه ومضى عنى إلى الفتاتين

وظللت طول النهار أضحك وألعب وأثب وأجرى وآكل وأشرب وأرسلت نفسى على سجيتها — وإن كان ينقصنى أن أعرف أن الخفة من سجاياى — وخلعت ثوب الاحتشام ورحت أكلم من لا أعرف وأدعو إلى طعامنا كل من يمر بنا — رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً — وأبدأ بالحديث من لم أر وجهه إلا فى ذلك اليوم ، وأخطف الكرة ممن يتقاذفونها ، وأجر رجل هذا ، وأشد أذن ذاك ، وأفعل ما يفعل الأطفال عادة إذا شجعتهم فأنسوا منك الارتياح إلى عبثهم ، حتى ضج صاحبى وضاق صدره ولم يعد يطيق هذا الخلق العظيم الذى حف بنا واندمج فينا وشاركنى وشاركته فى اللعب والضحك والجرى . فركبنا زورقاً صغيراً ؛ لكن هذا لم ينجه ولم يمنع أن أمضى فيما وطنت النفس عليه فى ذلك اليوم ، فقد كانت هناك زوارق أخرى فصرت أدنو بالقارب منها حتى أحاذيها ، ثم أروح أعابث من فيها ، فنفد صبر صديقى وأمر النوتى أن ينأى بنا عن الخلق جميعاً فاستلقيت على ظهرى وأغمضت عينى وتظاهرت بالنوم

ولكنى لم أنم ، وإنما كنت أحدث نفسى وأسألها عن جدوى هذا الذى صنعت ؟ أتراه أنسانى شيئاً أو أذهلنى عما بى ؟؟ ولم يسعنى إلا أن أعترف بأن كل ما صنعت كان عبثاً . فقد كانت ذات الثوب الأرجوانى ماثلة أبداً أمام ناظرى لا تبرحه ولا تفتر صورتها التى تلازمنى ، وكنت أراها فى كل من أرى وما تأخذه

العين ، فأنا حين أنظر إلى واحـدة من هاتين الفتاتين لا أراها وإنما أرى ذات الثوب الأرجوانى ، ويفتنى منظر فأقول لمن معى : « أنظروا ... ما أبدع هذا » ويكون الذى يفتنى منه ذات الثوب الأرجوانى التى تبدو لى فى إطار من هـذا المنظر . ولما ركبنا الزورق كان يخيـل إلىّ أنها سابحة فى المـاء كرائس البحر ، وما سمعت ضحكة ناعمة إلا قلت لنفسى لعل ضحكتها أرق وأسحر

وأعجب من هذا أنى كنت أجـدنى وأنا أضاحك الناس وأحدثهم وألاعبهم وأسابقهم أفكر فيها وأسأل نفسى عنها — وكان حسبى ما أنا فيه مما يستغرق جهد النفس — وأقول — فى سرى وبينى وبين نفسى — هل أنت تحبها ؟ ؟ أواثقٌ أنت أن هذا هو الحب . . فتجيبنى النفس أن نعم لا شك فى ذلك ، فأكر عليها معترضاً على هذا التأكيد وأقول : ولـكنك لا تعرفها .. لا تعرف حتى اسمها .. وما رأيتها إلا عن بعد فماذا تحب منها .. لا تستطيع أن تدعى أنك واجد فيها غير صورة جسمية هى التى تتراءى لك من هـذا البعد . ولعلها لو دنت قليلاً لطالعك منها ما لا ترتاح اليه ، فالأرجح أنك تحب منها صورة ألّفتها أنت من الألوان التى استعرتها منها . ولا شك أنك زدت هذه الألوان قوة وأضفت اليها من خيالك . ولو أنك كنت مصـورا وحاولت أن ترسم لها صورة من ذاكرتك لما استطعت أن تثبت شيئاً من ملامحها ، ولجاء الرسم لمخلوق من مخلوقات خيالك أنت ، وإن كان لا يخلو من شبه بذات الثوب الأرجوانى . فحتى الصورة المادية — أو الجسمية — التى تبدو لك ليست ثابتة ولا مقررة فى نفسك ، لأن الصور لا تثبت خطوطها وألوانها على مثل هذا البعـد . ومن السهل أن تُمحَى علمها وتمحوها صور أخرى تكون أثبت لأنها تكون أقرب فأقدر على التأثير وأنفذ بسبب القرب الى أعماق النفس والاستقرار فيها . ولو أن صورة ذات الثوب الأرجوانى كانت عميقة الأثر فى نفسك ومنقوشة بألوانها وخطوطها المميزة لها على صدرك ، أكنت تظن أن فى وسعك أن تتسلى كما تتسلى الآن بهذه الفتاة أو تلك ممن تعرف ؟؟ أكان يمكن أن ترتاح الى وجود غيرها وإن كنت تزعم أنك تتسلى ؟ ؟ لا ياصاحبى !.. وحسبك أن تسأل نفسك بأى شىء تذكرها . . ماذا فى نفسك منها غير صورتها فى النافذة كما تستطيع أن تراها على بعد ثلاثين مترا ! ؟ لو كنت كلمتها !! لو كنت رأيت ابتسامتها ونظرة عينيها ومنطق وجهها وتعبير محياها ، وكيف تكون إذ ترق وتحنو ، وحين يسرها شىء ، وعند ما تبدو عليها اللهفة أو الجزع أو الاضطراب ، والزهد فى شىء والرغبة فى آخر ، وحينما تتدلل أو تسخو ، وإذ تضحك أو تتجهم !! لو كنت رأيت شيئاً من ذلك لأمكن أن تقول إنك عرفتها وأحببتها ، ولكان لحبك لها غذاءٌ ومددٌ من ذكريات هذه الحالات المختلفة .. أما الآن فبماذا يتغذى حبك ؟ ؟ على أى شىء يعيش ؟ ؟ بأى شىء تذكرها إذا غابت عنك . . . بصورة هى أشد غموضاً من الرسم الفوتوغرافى وأخفى منه تعبيرا ؟ ؟ وهى مثلك ... أتزعم أنها توليك عناية واهتماما ، وأنها تفكر فيك ، وأنها لا تفتأ تنظر اليك ؟ فما يدريك أن هذا ليس من باب التطلع ومن قبيل الاستغراب أو اطاعة لرغبة نشأت فى الوقوف على حالات غريبة تبـدو من شخص يستحق عناية على كل حال لسبب من الأسباب التى تدعو الى العناية ؟ ؟ هه ؟ ؟ وهبها — جـدلا — أحبتك كما تظن أنك تحبها فان شأنها كشأنك ! . . ولعلكما لو تلاقيتما لكره كل منكما صاحبه ، أو نفر منه ، على الأقل ، أو إذا شئت ، لفتر ما يجده من الحب ، إذ كان لا أساس له إلا الصور الغامضة التى ينقصها البيان والتأثير الذاتى المباشر . . ويظهر أنها مثلك واسعة الخيال . . . وشبابها هو عذرها إذا جمح خيالها . . فانها غريرة ساذجة لا تعرف الدنيا . وأكبر الظن أنها لم تجرب الحب فهى لهذا شديدة الحنين اليه . ولـكن أنت ؟ . أنت ؟ . أنت المجرب الذى عرف المرأة ودرس وخبر كل ما يسع الرجل أن يخبر .. كيف يمكن أن تخدع نفسك وتغلط على هذا النحو فى فهم شعورك ؟ إن هذا منك مضحك !

وقد اعترضت على نفسى وأيت أن أسايرها إلى حيث تريد فانى أعرفها خبيثة شديدة المغالطة ، وقلت لها : « كيف تزعمين يا نفسى أن لا شىء عنـدى من الذكريات أغذى بها حبها ؟ ألم تسمعى صوتها فى ضحكة فضية ؟ (واها لهذا الرنين) أليست تبدو — أكثر الوقت — فى الثوب الأرجوانى الذى تعرف أنى أحبه ؟ أتسألين يا نفس كيف عرفتُ أنى أحب هذا الثوب ؟ . قبحك الله ! . وما شأنك أنت ؟ . أعرف أنها تعرف والسلام ! وأنا على يقين من أنها تعرف . وبينى وبينها لغة لا تحتاج الى الكلام ولا الى النظر . . . لغة أفهمها وتفهمها وإن كان كلانا معرضاً عن صاحبه ، لأنها ذكية — مثلى ولا فخر — فهى تدرك أنى حين أكف عن النظر اليها ، يلتفت قلبى إليها ، وإن كانت عينى قد تحولت عنها لسبب غير ارادة النفس وهوى الفؤاد .. ولا يخفى

عليها أنى حين أنظر الى ترام عابر أو سيارة تخطف فى الطريق أو زمرة مارة ، فانى إنما أفعل ذلك لأنى أخاف عليها الناس أن يلهجوا بنا . وليبق حبي وحبها كنزاً لا يعرف سرّه غيرُنا . . ولا يشاركنا فيه — بالعلم — ثالثٌ . ولست أكلمها — هذا صحيح — ولا أنا أشير اليها ، لأنى أعرف أنها تعرف أن الاشارة تحصيل حاصل . ومائلاثون متراً بيننا ؟ ؟ إن قلبها كتاب مفتوح ؛ وهل تستطيع الزهرة الأرجة أن تكتم الشذى ؟ ؟ . نعم إنها حريصة كيسة ، ولكنى مع ذلك أعرف حين أراها مقطبة عابسة أن قلبها يضحك وإن كانت نظرتها صارمة الجد . . ولقد بدت منها إشارات تعمدت ألا أفهمها — لا لأنى لم أفهم بل لأنى خفت أن تكون قد صدرت عنها عفواً وعلى غير عمد ، فأكون قد تسرعت وأسأت التأويل . ولا أقول ما هذه الاشارات فانى حريص على الاستئثار بها والانفراد دون خلق الله بمعرفتها . وما أكثر ما أذكر من حالاتها حين تكون وجدها وحين يكون معها غيرها .. وهل أنسى أنها حين تغضب علىّ لبلادتى وبطء فهمى تذهب فتلبس ثوباً غير الأرجوانى ؟ ؟ هل أنسى كيف تلف على شعرها شريطاً وتترك خصله الوطفاء مرسلة على جانبي محياها الصابح يعبث بها النسيم فتهز رأسها لتردها وتصلح منها وتسويها ؟ ؟ . هل أنسى كيف تجلس وفى يدها الكتاب — على ركبتها — وظهرها إلىّ — وهى مع ذلك ترانى وتعرف أنى ناظر إليها ومعجب بها ومتلهف على نظرة منها ؟ ؟ هل أنسى كيف تكايدنى وتهيجنى وتثير نفسى لتمتحن حبي وترى ما ذا يكون من أثر ذلك فى نفسى ؟ ؟ وما أعذب مكايدتها وأحلاها ! ! . وما أجملها بى إذا كانت تظن أن شيئاً من ذلك يثيرنى ويغضبنى ! فان فى وسعى — دائماً — أن أضع نفسى فى مكان الغير ، وأن أتصور ما يُستَقبَلُ أن يصدر عنه وأن أقدر البواعث على ما يبدر منه فاعذره فى الأغلب . . والحق أقول إنى أراها مقصرة فى مكايدتى لا مسرفة . ولا أنكر أنه يعز على أن تغيب عن عينى ، ولكنى أنا مضطر أن أغيب عنها وأنقطع عن النظر إليها ، وعزائى أنى لا أنعم بأكثر من مرآها وأنها لم تهنى أكثر من منظرها من بعيد ، وأنها لم تولنى ما أتحسر على فقده إذا فقدته ؛ وما دام هذا هكذا فانى أستطيع أن أراها بعين الخيال كما أراها بعينى التى فى رأسى . ولو أنى كنت مكانها لعرفت كيف أكايدها ، فلتحمد الله الذى خلقنى رجلاً ولم يخلقنى امرأة .

ولو شئت لعذبتها ولكنى أوثر الترفق — بطبعى — وإن كنت لخبرتى بالطبيعة البشرية من أعرق الناس بوسائل التعذيب . وأنا أسأل نفسى دائماً « لماذا أعذبها وأنا أحبها ؟ ، ولماذا تستحق التعذيب وهى لو وسعها أن ترضينى لأرضتنى ؟ لا شك فى ذلك ، وصحيح أنه يسعها أكثر مما تبدى ولكنى لا أحب أن أعجل باللوم . . ومن يدرى ؟ . لقد علمتنى حياتى أن اليأس سخافة ، وأن العجلة من الشيطان ، كما أقول لصديق ، وأن طول البال ينيل الأمل ، كما يقول المثل العامى ، وأن الغضب حماقة ، وأن العتاب عبث ، وهو فى النهاية يفتر الحب ، وأنا أحب هذه الارجوانية الثوب وأحب أن يطول حبها لى ، لأنى أعرف من نفسى أن حبي لا يفتر وإن كان فى وسعى — بفضل رياضتى لنفسى — أن أستر ناره بالرماد . كلا لن أكايدها وسأصبر عليها وأملى لها وأمهلها لأرى ما يكون منها ولأختبر مبلغ حبها فانى على الرغم من الحب أوثر أن أقدّر لرجلى قبل الخطو موضعها . فاذا رأيت منها ما يطمئن خرجت عن هذا التحفظ الثقيل عليها وعلى أيضاً وإلا فانى قادر على خنق هذا الحب ولو كلفنى تقليع أحشائى من جذورها

فى هذا كنت أفكر ، وبهذا كنت أناجى نفسى ، وأنا ألاعب هذه الفتاة وتلك وأضاحكهما وأسابقهما وأسخط صديق على بترك الاحتشام الذى ألفه منى حتى صار يستغرب منى الابتسام ، وليس أعجب من اشتغال النفس بأمرين فى وقت واحد . ولكنى لا أكتب مقالاً فى علم النفس وإنما أسوق حكاية وأصف حالة فيحسن أن أقتصر على ذلك

وقد عدت من القناطر بغير ما كنت أرجو أن أفوز به . نعم لهوتُ وضحكت وبدوت لمن لا يعرفنى كأسعد ما يكون إنسان . ومن ذا الذى يمكن أن يسمع ضحكتى ويرى وثبى وقفزى ويرتاب فى أنى سعيد موفق ؟ ؟ ولكن صديقى كان يعلم أن فى صدرى شيئاً أكتمه ، وأن ما أنطوى عليه ليس مما يهون حمله ، وإلا لما التمست التلهى ونشدت التعزى ، غير أنه كان على هذا يجهل — ومن أين يعرف ؟ — أن فى جوفى ناراً مضطرمة من القلق والشك والحيرة والاضطراب وقد خرجت من الحوار الذى دار بينى وبين نفسى بالشك وباعتقاد أنى جاهل ما فى ضمير الفؤاد — أو على الأقل أن الأمر فيه نظر كبير فالحق أن معرفة النفس أشق المعارف وأعسرها مطلباً ..

ابراهيم عبد القادر المازنى